الفصل الثاني

أغاني الجبادة

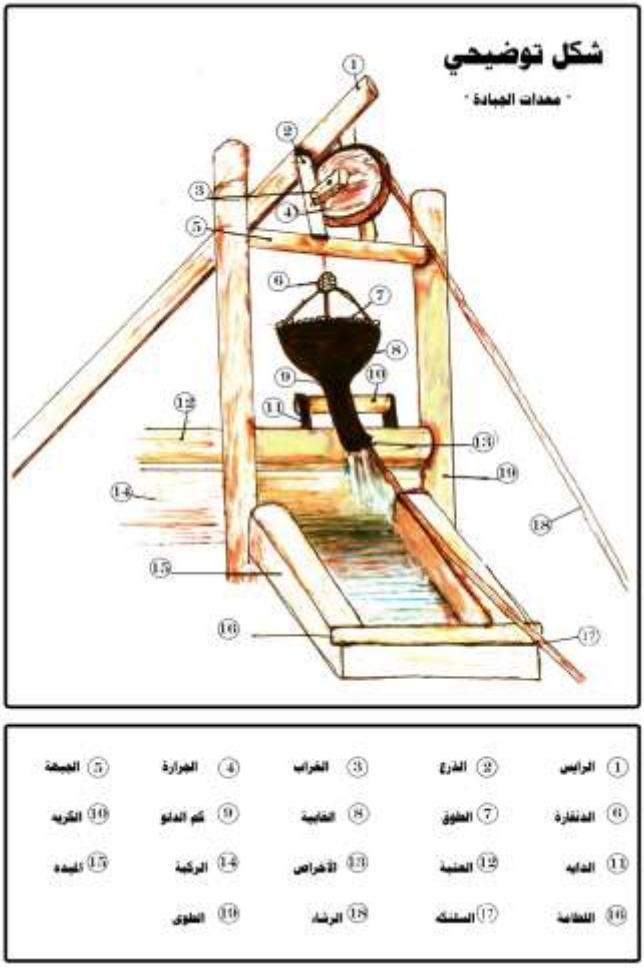

معدات الجبادة

رسم / حصن ابوزيد حصن

تمهيد

الأدب الشعبي، هو ذلك الاحساس العجيب الذي نشعر به عند سماعنا لترانيم فناني هذا الأدب، الذي تكبره النغمة الحلوة في مسامعنا منذ الصغر يشب مع سلوكنا ويسري في عروقنا ويظهر على تفكيرنا، أمام تعدد الوان الأدب الشعبي الجميلة، وحيث إننا بصدد الحديث عن (أغاني العمل) فإننا نتحدث هنا عن لون من هذه الأغاني تميزت به الواحات الليبية أكثر من غيرها وهو أغاني الجبادة، وحيث إنني ولدت في الواحة، وعشت طفولتي وسط مزارع أشجار النخيل الباسقات حيث تزرع الاحواض بالمحاصيل الزراعية المختلفة من حبوب وخضروات طيلة العام وحسب الموسم، وكان اعتماد الناس في حياتهم على ما تنتجه هذه المزارع يستهلكون منه ويبيعون الفائض، وكانت هذه المزارع تروى بواسطة الدلو والذي كان لصوت تدفق مياهه نغم جميل، يسكن وجداني حتى الان، كما ان أغاني ذلك الفلاح البسيط برأسه الأشعث وأقدامه المغبرة وثيابه الرثة، هي أيضًا نقشت في ذاكرتي منذ الصبا، ورأيت من واجبي تدوين جانب منها قبل أن تمحوها عجلة التطور التي تسير بنا بسرعة مذهلة.

لقد عرفت حرفة الجبادة منذ القدم، عندما كانت المزارع المروية تعتمد على المجهود اليدوي في عملية استخراج المياه من آبار، لقد

استمرت هذه الحرفة حتى العقد السادس من القرن العشرين، حيث دخلت الميكنة في هذه العملية.

الجبادة حرفة رئيسية لدى سكان الواحات، وتتم العملية عن طريق جملة من المعدات تنصب حول البئر، وتصنع غالبيتها من جذوع النخيل وأليافها وجريدها، وكذلك من بعض الأشجار التي تنمو في تلك البيئة، وتحمل هذه المعدات تسميات محلية تختلف من منطقة لأخرى وتتفق بعضها في جميع المناطق" انظر الشكل التوضيحي"، أما بالنسبة للمناطق الساحلية، فإنه يتم بناء من الحجارة حول البئر وتثبت عليه البكرات الخاصة بعملية الجبادة "انظر الصورة"، كما يلاحظ استخدام البقر في استخراج الماء في المناطق الساحلية بينما تستعمل الحمير في مناطق الواحات.

إن عملية حفر آبار في الواحات، تتم عن طريق التعاون بين الناس (الرغاطة) في اغلب الاحيان، ويتم تبطين الجزء العلوي من البئر عن طريق البناء بالحجارة والطين أو الجير البلدي، منعا لانجراف التربة، ثم يتم نصب المعدات التي ذكرت آنفا، كما يتم حفر وتمهيد مجرى ترابي يسمى (المرجع) ويسمى في مناطق أخرى (المجر) ويكون طوله بطول البئر تقريبا، ويبني حوض صغير يفرغ فيه الماء بعد وصول الدلو المملوء بالماء إلى اعلى البئر، والدلو يصنع من الجلد بعد دبغه ووفق طريقة فنية معينة يقوم بها شخص مختص ويتم تجهيز كل ذلك على حساب صاحب المزرعة، كما يقوم

بتوفير الدواب التي تستعمل في عملية استخراج الماء، ويستعين صاحب المزرعة برجال يقومون بهذا العمل، إلى جانب الأعمال الحقلية الأخرى، يختلف عددهم من مزرعة لأخرى حسب مساحة المزرعة وعدد أولاد صاحبها (مالكها)

يطلق على العامل الذي يشتغل بالمزرعة اسم (سقاي) وتجمع في العامية (سقاقي) أي "ساقي"، ويتم الاتفاق بين صاحب المزرعة وهذا الساقي على نسبة معينة في الانتاج يتقاضاها في نهاية الموسم الزراعي إلى جانب بعض الشروط الأخرى كالإعاشة وغيرها.

يقود الفلاح دابته والتي يسير إلى جانبها الساعات الطوال في ذلك المجرى الترابي (المرجع) حيث يقوم بتعبئة الدلو بالمياه من البئر وتفريغه ليخرج بعد ذلك إلى الاحواض المزروعة، ان هذه العملية تحتاج إلى صبر ومكابدة فهو عمل مضنى ورتيب يقضيه هذا الفلاح صاعدا ومنحدرا إلى جانب دابته يحثها على السير ويساعدها، مما يدفع به إلى البحث عن متنفس له يعينه على تلك المتاعب، من هنا نجده يترنم بأغاني ذات حكمة ومضمون، وهي في ذات الوقت وسيلة تسلية وترفيه. فأغاني الجبادة نوع هام من الإبداع الشعبي لارتباطه بأهم وظيفة إنسانية، وهي العمل والعطاء وبذل الجهد من أجل لقمة العيش الطيبة، كما أن هذا النوع يصاغ في قالب رباعي جميل ورائع وهو قالب معروف، ومألوف في أغاني العمل، تلك

الأغاني التي تشترك في خصائص موحدة حيث تتميز بالوضوح والإيقاع الداخلي المنتظم .

كما ان المتمعن في تلك الأغاني يجد فيها الدروس الحياتية النافعة والتى تنم عن تجربة عميقة في الحياة، فهي تحث على العمل والتوكل على الله والصبر وقوة التحمل، والعفة تلك الصفة الحميدة، والاحتراس والحذر حماية للنفس والعرض والأرض، كما أنها تحوي معاني مشرقة متفائلة والنصح والوصايا، ولم تترك هذه الأغاني الجانب العاطفي، فكان له نصيب فيها مصوغ بقالب جميل عفيف وغير ذلك من الجوانب الأخرى مما نعرضه خلال هذه الدراسة المتواضعة نقدمها للقارئ محاولة منا للإسهام في جمع تراثنا الزاخر. فلعلي بهذا العمل ندرك ما يمكن إدراكه من هذه الثروة الثقافية التي داهمها النسيان والضياع والتحريف.

ان ما احتوته هذه الدراسة لهذا اللون من تراثنا الشعبي الرائع، هو نزر يسير مما قاله الآباء والاجداد، ولكنني هنا أعرض نموذجا لما سمعته وحفظته من الأهل والجيران، وفي ذات الوقت أفتح الباب لمن يريد الاضافة أو النقد والتصحيح. فنحن في مدرسة الحياة طلاب حتى الممات، وما توفيقي إلا بالله.